❁ تجديد مناهج التفسير ..ضرورة ملحة

د. محمد دراجي.

أستاذ محاضر ورئيس قسم اللغة والحضارة

*كلية أصول الدين * جامعة الجزائر.*

تمهيد :

لا تزال الشكوى عالية، والدعوة ملحة إلى ضرورة إصلاح مناهج التعامل مع القرآن الكريم، حفظا وفهما وعملا، حتى يصطلح الإنسان المسلم المعاصر مع كتاب الله تعالى، وتزول مظاهر الهجران المتعددة للقرآن الكريم التي تطبع حياة المسلمين منذ أمد بعيد، فها هو حكيم الشرق، ومفجر الصحوة الإسلامية في العصور الحديثة، السيد جمال الدين الأفغاني، الذي جعل القرآن الكريم منطلق مشروعه الحضاري المتميز، يقول:"القرآن وحده سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، أما ما تراكم عليه وتجمع حواليه من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم فينبغي ألا نعول عليه كوحي وإنما نستأنس به كرأي... ولا نحمله على أكفنا مع القرآن الكريم في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه... وتفسيره وإضاعة الوقت في عرضه"[1].

ولكن كيف يكون القرآن سبب الهداية، والمناهج المتبعة في فهمه تحول دون المسلمين وانتفاعهم بهذه الهداية، لذا عاب السيد جمال الدين الأفغاني على المفسرين القدامى اعتناءهم بالمماحكات اللغوية والكلامية وابتعادهم عن النظر في القرآن من حيث هو صالح لقيادة الحياة، واحتواء الحقائق الكونية والاجتماعية والأخلاقية فقال رحمه الله:"القرآن وإني لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون عن الفقر المدقع ..."

وكيف لا أقول وأسفاه على القرآن، وإذا قام أحد لتفسير القرآن فلا أراء يهيم إلا بباء البسملة وبغوص، ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوى هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية-مع استكماله الأمر على أتم وجوههما- فعم الجهل و تفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية والقرآن بريئ بما يقولون"[2].

والقارئ المتفحص لهذا النص يدرك أن السيد جمال الدين الأفغاني يدعو إلى إصلاح مناهج التفسير التي تحجب على المسلم نور القرآن وهدايته، لأنها تفرقه في مباحث لفظية وكلامية، ومصطلحات غريبة يصعب عليه فك فعاليتها، وحل رموزها، فيقول رحمه الله:"انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه والوقوف عند بابه دون التخطي إلى محرابه...وإنما نحن اليوم حملنا مع القرآن ألفاظا لفظية، ومناقشات حول أحكامه فرضية، واستنتاجات ليست في مصلحة البشر ولا هي من وسائل هدايتهم إلى الإيمان به، وأضفنا إليه من الشرح والتفسير ما لا محصل له سوى الأغراب وإرضاء العامة"[3].

ويخلص السيد جمال الدين الأفغاني إلى التأكيد على أن وظيفة المفسر لكلام الله ﷻ لا يقوم بدرس تطبيقي لقواعد الإعراب ونكات البلاغة على نصوص القرآن الكريم، وإنما وظيفته الحقة أن يقتلع ما رسخ في عقول المسلمين من أفكار خاطئة، ومفاهيم غريبة عن الحقائق الدينية، وأن يحمي تلك التعاليم في نفوس المؤمنين، أو بعبارة أخرى، يجب أن يبني الشخصية الإسلامية المتكاملة، والمجتمع الإسلامي

الفاضل المتوازن، فيقول رحمه الله:"إن حركتنا الدينية هي كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام، ومعظم الخواص، من فهم بعض العقائد الدينية والشرعية على غير وجهها، ثم حملهم بنصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ألا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه فهما يثبط همهم عن السعي وراء الإصلاح والنجاح في نظير ذلك، مما لا عهد للسلف الصالح به.

فلا بد إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث تأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وآخرى"[4].

وبالإضافة إلى السيد جمال الدين الأفغاني، نجد العلامة المفكر المجدد الدكتور محمد إقبال-رحمه الله- (1937م) الذي أولى عناية كبيرة، واهتماما فائقا، لـ"تجديد الفكر الديني" وإعادة تشكيل العقل المسلم، وبناء الفكر الإسلامي، فأدرك أن المناهج المنحرفة في التفسير، إذا اتبعها الإنسان المسلم في فهم كلام اللهﷻ، أوردته المهالك، وانحرفت به عن المقاصد الصحيحة، فقال قولته المشهورة عنه:"بالتفسير نحول القرآن إلى بازند المجوس"[5].

ولذا أدرك ضرورة التأليف في أصول التفسير، ومناهج فهم الوحي الإلهي، وعقد العزم على أن يفعل هو بنفسه ذلك، وأن يسد هذه الثغرة، ولكن المنية عاجلته، وحالت دون أن يحقق مراده هذا، لقد كتب إقبال-رحمه الله- إلى أحد أصدقائه الأثيرين من العلماء قبيل وفاته ما يلي : "إنني على وشك الرحيل، ولكنني أتمنى أن أملي بعض الآراء والأفكار عن القرآن الكريم، و أريد أن أكرس ما بقي لي من عمري وقوتي وحيويتي في سبيل خدمة هذا الكتاب العظيم حتى تتاح لي زيارة

الرسول وقلبي راض مطمئن مسرور بأنني قد بذلت ما استطعت من جهدي في خدمة الدين القيم الذي جاء به"[6].

ويندرج فكر العلامة المصلح، الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس-رحمه الله- (1940م)، في هذا الإطار، فهو أدرك بعد الأمة الإسلامية عن الفهم الصحيح للقرآن الكريم، بل عن الإيمان بجدوى الفهم، ففي محاضرة له بعنوان "بماذا تنهض الأمة نهضة دينية؟ ألقاها بنادي الترقي بالعاصمة الجزائرية بتاريخ 08 جويلية 1928م، صور المأساة في أحلك وجه لها لما قال: "...وإنما أنا رجل "طالب قرآن" حفظته في أول بلوغي وأنا لا أفهمه، لأنني ما سمعت يوما من أحد أن القرآن يقرأ للفهم، ولا أكتمكم أنني أخذت شهادتي من جامع الزيتونة في العشرين من عمري وأنا لا أعرف للقرآن أنه كتاب حياة وكتاب نهضة وكتاب مدنية وعمران، وكتاب هداية للسعادتين لأنني ما سمعت ذلك من شيوخي عليهم الرحمة ولهم الكرامة، وإنما بدأت أسمع هذا يوم جلست إلى العلامة الأستاذ محمد النخلي الذي رمي هو الآخر-في وقت من فئة- بالإلحاد، ولكنه يوم مات تداعت لموته خلق جامع الزيتونة واهتز له القطر التونسي كله"[7].

فالهاجس الذي يجب أن يسيطر على نفس المفسر لكلام الله، وعقله هو النظر إلى القرآن الكريم من حيث هو كتاب حياة وكتاب نهضة، وكتاب مدنية وعمران، وكتاب هداية للسعادتين، لأن هذا هو الغرض الأساسي الذي أنزل القرآن الكريم من أجله، فهل طرائق التدريس، ومناهج الفهم تتلاءم وهذا الغرض في المدارس والكليات الإسلامية، باعتبار أن هناك علاقة تكاملية بين الغرض من التفسير والمنهج المتبع فيه، يلاحظ شيخ المصلحين الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس أن المنهج

المتبعة في تدريس التفسير في المدارس والكليات الإسلامية بعيدة كل البعد عن الغرض الأصلي للتفسير، ويعتبر هذا مظهرا من مظاهر الهجر لكلام الله تعالى، الذي تعوذ منه رسول اللهﷺ:"وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا"[8]. فيقول في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة:"ودعانا القرآن الكريم إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبينه، فأعرضنا عن ذلك، وهجرنا تفسيره وتبينه، فترى الطالب يغني حصة كبيرة من عمره في الحلول الآلية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلا، بل ويصير مدرسا ومتصدرا ولم يفعل ذلك، وفي جامع الزيتونة -عمره الله تعالى- إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير فإنه -ويل للمصيبة- يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل فيقضي في خصومة من الخصومات أياما أو شهورا فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلا دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى السنة في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق تلك القواعد الآلية ولا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن"[9].

فكل منهج في التفسير لا يجعل من إبراز الهداية القرآنية هدفا أساسيا له فهو في المنظور الباديسي نوع من أنواع هجر القرآن حتى ولو كان فاعل ذلك يحسب نفسه في خدمة القرآن، فدرس التفسير ليس من أجل تطبيق القواعد الآلية من نحو

وصرف وبلاغة... وإنما هو من أجل فهم الشرائع والأحكام وإدراك مقاصد التشريع وأسرار التكليف وتقديم إجابات حول المشكلات التي تواجه الإنسان.

وجاء بعد ذلك العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- (1973م) صاحب الموسوعة التفسيرية الموسومة بـ"التحرير والتنوير" في ثلاثين جزءا في خمسة عشرة مجلدا، والذي عاش حياته كلها في التعلم والتعليم، وخبر "المشكلة التربوية التعليمية" جيدا، وما اعتراها من خلل وضعف، وكيف السبيل إلى تجاوز هذا الخلل الطارئ، والضعف المشين، فألف كتابه "أليس الصبح بقريب"، حيث يقول في مقدمته مبينا الأسباب الدافعة له إلى هذا التأليف "قد كان حدا بي حادى الآمال، وأملي علي ضميري من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربي الإسلامي الذي أشعرتني مدة مزاولته متعلما ومعلما بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق فعقدت عزمي على تحرير كتاب في الدعوة إلى ذلك وبيان أسبابه..."[10].

وكان علم التفسير في مقدمة العلوم الشرعية التي بحثها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتتبع أسباب انحطاطها وردها إلى أربعة أسباب[11] وهي:

1-السبب الأول: الولع بالتوقيف والنقل، تفاديا عن الوقوع في الخطأ، الأمر الذي أدى بهم إلى اتقاء الرأي ولو كان صحيحا، وإيثار النقل ولو كان ضعيفا لتوهمهم أن ما خالف النقل عن السابقين إخراج للقرآن عما أراد الله تعالى منه، ومما يندرج في هذا الإطار توسعهم الكثير في إيراد سبب النزول، وحشرهم لمرويات بساقطة على أنها من أسباب النزول.

2-السبب الثاني: الضعف في اللغة والبلاغة، فجاءت أقوال بعض المنشغلين بالتفسير غاية في الغثاثة والرثاثة، وأخطر منه ضلال الباطنية والإسماعيلية وبعض منحرفي الصوفية الذين زعموا أن للقرآن ظاهرا وباطنا، وفسروا القرآن بإشارات لا تشهد لها مداليل اللغة.

3-السبب الثالث: الضعف في علوم يظن أنها بعيدة عن القرآن، وهي ضرورية لفهمه، ومعرفة عظمته العمرانية مثل التاريخ وفلسفة العمران والأديان السماوية.

4-السبب الرابع: خروج بعض التفاسير عن ذكر العلوم التي لها تعلق بفهم الآية إلى مسائل من علوم متنوعة ضعيفة المناسبة بموضوع الآية، كما فعل الفخر الرازي ... فكان كتابه بعيدا عن غرض التفسير.

هذه هي الأسباب التي أدت إلى التضييق لعلم التفسير، وحالت -في فضل العلامة محمد الطاهر بن عاشور- دون الفهم السليم للوحي القرآني، المثمر للسلوك الحميد، والفعل الحسن.

ونفس الشكوى نجدها عند المفكر الداعية المجدد للفكر الإسلامي، الشيخ محمد الغزالي (1996م) -رحمه الله- إذ أعلن ضيقه وتبرمه من الطريقة التي كان يدرس بها علم التفسير في الأزهر الشريف والمعاهد الدينية التابعة له، لأنها كانت بعيدة كل البعد عن تقريب الهداية القرآنية من عقول وقلوب الطلاب، واستبدلت ذلك كله بالحديث المسهب عن الوجوه الإعرابية، والإشارات البلاغية، والروايات المنقولة...فيقول:"أما علم التفسير فإنني أرى أننا لم ندرسه في الأزهر على الإطلاق، إذ أن دراسته كانت مجرد تطبيقات بلاغية وإعرابية فقط"[12]، ويقول في موضع آخر وهو في معرض السرد للعلوم التي تلقاها في الأزهر الشريف، والكتب التي كانت

مقررة وكيف أن نفوره كان منها شديدا، وضيقه منها كان كبيرا، فيقول:"وأما الفقه والتفسير وغيرهما، فقد كان نفوري شديدا من كتب "نور الإيضاح، ومتن القدوري، ومجمع الأنهر على ملتقى الأبحر، التي كانت تقدم لنا الفقه الحنفي، كما كنت ضائقا بتفسير النسفي وأبي السعود وغيرهما..."[13].

وكل هذه الشكاوى من أهل الفن، الذين مارسوا التفسير دراسة وتدريسا، تلتقي عند نقطة مشتركة، وهي أن المناهج المتبعة في تدريس التفسير تتوقف عن ظواهر ألفاظ الآيات القرآنية، والتراكيب المنتظمة لها، وتحجم عن سبر آغوار معانيها، واستملاء عنصر الهداية فيها، ولقد أدرك هذا العلامة المصلح المجدد أبو إسحاق الشاطبي (799هـ، فسمى هذه الجهود التي تجعل كل همها تفكيك العبارة والوقوف عند حدودها بـ "مدرسة التفقه في العبارة" -فقال رحمه الله، داعيا إلى ضرورة ترك كل ما من شأنه أن يحول بين الإنسان وبين المقصود الأعظم للخطاب القرآني وهو التفهم لمعناه والتعبد بمقتضاه "وذلك أن القرآن عذار وانذار، وتبشير وتحذير، ورد إلى الصراط المستقيم، فكم بين من فهم معناه ورأي أنه مقصود العبارة، فداخله من فوق الوعيد ورجاء الموعود، ما صار به مشمرا على ساعد الجد والاجتهاد، باذلا غاية الطاقة في الموافقات هاربا بالكلية عن المخالفات، مبين من أخذ في تحسين الإيراد والاشتغال بمآخذ العبارة ومدارجها ولم اختلفت مع مرادفاتها مع أن المعنى واحد، وتفريع التجنيس ومحاسن الألفاظ، والمعنى المقصود في الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، بل التفقه في المعبر عنه ومالا مراد به وهذا لا يرتاب فيه عاقل"[14].

وهذا الذي سماه الإمام الشاطبي بـ"مدرسة التفقه في العبارة" قد سماه باحث معاصر تتبع مراحل تطور علم التفسير، وهو إسلامية المعرفة، يتتبع تطور العلاقة بين المسلمين وبين قرآنهم، بمدرسة "التثقيف الإسلامي" التي تهدف إلى تقديم أكبر قدر من المعلومات، وشحن عقل المسلم به، دون التعريج لا من قريب ولا من بعيد عن واقع المسلمين ومدى قربه أو بعده عن المنهاج القرآني، وتعاليمه وأحكامه، ولقد انطلق هذا الباحث في الحكم على جهود "المفسرين التثقفيين" من نقطة أساسية وهي تحديد الغاية الأساسية للقرآن والتي حصرها في "إقامة الشخصية الإسلامية وبناء أمة لها خصائصها ومميزاتها، و إنشاء جيل على قواعد التربية الربانية تجعله صورة ناطقة عن الحق الذي نزل به القرآن"[15].

ورأى بأن جيل الصحابة كان نموذجا فريدا في تحقيق مبادئ القرآن الكريم في سلوكهم عمليا، ولذا لم يكونوا يبحثوا إلا ما تحته عمل، ولم يكثروا من البحوث الافتراضية والنظرية، ولكن مع تطور حركة التفسير –بعد عصر التابعين خاصة– أصبح المفسرون يتوسعون في بحث الموضوعات القرآنية، وهذا فهم تقديم أكبر قدر من المعلومات للمسلم وهكذا بدأوا يغفلون الغرض الأساسي للتفسير، مع ملاحظة أن الباحث –الدكتور عدنان زرزور– لم يعتبر هذا انحرافا في المناهج التفسيرية، ويعلل هذا بالقول "علينا أن نتذكر البيئة التي كان يعيش فيها هؤلاء المفسرون الأعلام، والجو الذي ينتسمونه وينطلقون فيه، لأن الجزء الذي أغفلوه من ذلك الغرض الأساسي كان متحققا من حولهم في مجتمع إسلامي، وشريعة حاكمة وسلطان.

ولهذا كان هم المفسرين القدامى مصروفا إلى "تثقيف" المسلم، وتقديم القدر الذي تمكن فيه المفسر، من العلوم والمعارف اللغوية والتاريخية ونحوها إلى قارئ التفسير وبخاصة الأحكام الشريعة"[16].

ولاحظ الباحث الدكتور عدنان زرزور أن الهوة ازدادت إتساعا، بين التفسير والغرض الأساسي للقرآن بظهور الفرق الكلامية المختلفة، التي أصبحت لا تفهم القرآن إلا من خلال مقرراتها الفكرية التي وضعتها هي نفسها، وازداد الأمر سوءا من خلال تسرب الإسرائيليات والموضوعات إلى مجال التفسير القرآني فحجبت أنوار القرآن وإيحاءاته على المسلم، وهكذا دخل علم التفسير مرحلة الركود والانحطاط الحضاري.

وفي العصر الحديث جدت أحداث، ومتطلبات، وظهرت مفاهيم وأفكار، ما كان للمفسرين القدامى بها علم، فغابت الحياة الإسلامية، ولم يعد للمجتمع الإسلامي وجود، وكيان ومؤسسات تحتكم إلى الإسلام وشريعته في كل أنظمتها وقوانينها، فجدت الحاجة إلى تفسير معاصر للقرآن يكتبه صاحبه بلغة العصر وأسلوبه، ويواجه فيه الحياة المعاصرة بكل مشاكلها وأبعادها.

ولذا فقد حدد الدكتور عدنان زرزور، ثلاثة شروط لا بد من توفرها في التفسير الذي يلبي الحاجة اليوم وهي:

1- ملاحظة الغرض الأساسي الذي نزل القرآن من أجله، بما يتناسب -مع هذا العصر- مع غياب المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

2- تسجيله لمعاني القرآن التي فهمها الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- واستلهموها وعاشوا تطبيقها العملي الواقعي الذي لم يعرف تفريقا بين النظرية والتطبيق.

3- محاولته تجاوز عصر الخلاف -عصر المذهبية الفكرية- في تفسير القرآن الكريم.

ويؤكد الدكتور عدنان زرزور أن التفسير الظلال قد حقق هذه الشروط الثلاثة، ولذا اعتبره نقلة نوعية في تطور علم التفسير وعليه فتفسير سيد قطب (1966م) "في ظلال القرآن" هو التفسير الذي استجاب لمتطلبات العصر، فقال:"وعندنا أن -في ظلال القرآن- امتاز بهذه الأمور الثلاثة، فلم يكن بذلك من أهم المعالم الرئيسية في تاريخ التفسير فحسب، بل كان كذلك تفسير العصر الذي لا يغنى عنه أي تفسير آخر من تفاسير علمائنا الأوائل، جزاهم عن كتابه أحسن الجزاء"[17].

وذلك أن سيد قطب -رحمه الله- كتب تفسيره بلغة العصر، وبطريقة ميزته عن بقية كتب التفسير، إذ ركز صاحبه على الغرض الأساسي الذي أنزل من أجله القرآن الكريم، فقال:"إن الظلال ليس دليلا ثقافيا لعلوم القرآن أو علوم التفسير، أو علوم الثقافة الإسلامية، من فقه، وأصول، وتاريخ جدل أو خلاف، ومن ظن أن هذا هو تعريف التفسير، أو أن تقديم ذلك الدليل الثقافي يجب أن يكون مهمة جميع المفسرين، في جميع العصور، فليعد على معلوماته بالمراجعة والتحليل، وليعد إلى الغرض الأساسي أو الأول من نزول القرآن بالنظر والتأمل..."[18].

والدكتور الباحث، يريد أن يؤكد أن تفسير سيد قطب فريد في بابه تميز بمنهجية فريدة، وطريقة جديدة لم يألفها الناس من قبل في كتب التفسير، ولعل هذا هو

السبب الرئيسي في أن الكثيرين -مع اختلاف البواعث في إصدار هذا الحكم الخطير- لم يعتبروه تفسيرا للقرآن الكريم، وإنما هو خواطر كان يكتبها سيد حول الآيات، وقالوا بأن ذلك هو سر تسميته بـ "ظلال القرآن".

والحقيقة أن الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- لم يكتف بطرق الموضوعات القرآنية، التي اعتاد المفسرون القدامى التعرض لها، وإنما حاول أن يربط بين المسلمين وقرآنهم من جديد "إني لأشفق على الظلال أن يكون كتابا في التفسير، وذلك أن الغاية التي يهدف إليها أكبر بكثير من مجرد المعرفة النظرية الباردة لمعاني الآيات القرآنية، والتي يتسع الجدل فيها حول مسائل اللغة والكلام والفلسفة والفقه والتاريخ، وهذه أمور عليمة محض، حيث إن علم التفسير يستطيع أن يبين لنا وجه الحق فيما يعتقده المؤمنون، ولكن هذا الحق لن تكون له علاقة بالواقع إلا في المجال الفكري، وهي علاقة نظرية خالصة بين الحياة والعلم.

أما الغاية التي يهدف إليها الظلال فهي: أن يعيد القرآن حيا في نفوس الناس، يصوغهم صياغة جديدة وينقلهم من مجتمع الجاهلية إلى مجتمع الإسلام، فيسمهم بميسمهم الحق، ويطبعهم بطابع الهدي، ويصيغهم بصبغة الله..."[19].

ولما كان علم التفسير يحتل الصدارة في الفكر الإسلامي، كان لا بد وأن تتلون التفاسير التي يصدرها أبناء الحركة الإسلامية بهذا اللون من التفكير المتجدد، وأن تمتلئ تفاسيرهم ببحث هذه المسائل والموضوعات، وغيرها التي تنير الطريق أمام العمل الإسلامي المعاصر، ومن هؤلاء نجد العلامة المجدد أبا الأعلى المودودي (1979م) يرسم الطريق الأسلم لفهم القرآن فهما صحيحا بالقول بأنه:"التفكير في كلمات وصيغ الآية التي يراد معرفة معناها من حيث اللغة أولا، ثم وضعها في

سياقها ثم مراجعة ما ورد في مختلف مواضع القرآن من الآيات المتعلقة بنفس مضمون تلك الآية، والأخذ بما ينسجم من تفسير هذه الآية مع هذه الآيات، مع ملاحظة الوقوف على أقوال وأفعال الرسولﷺ، وبأي وجه فسرها أولئك الذين كانوا من اتباعه في أقرب عصر لحياته"[20].

وهذا النص مهم جدا لأنه يوجب على المفسر أن يلتزم بالتفسير المأثور عن رسول اللهﷺ وأن يسترشد بالمأثور عن الصحابة والتابعين وكذلك آراء القدامى من المفسرين مما يدفع عن الاتجاه الهدائي الحركي في التفسير وفي الفكر عموما تفهمه اختلاق مفاهيم لم يكن للسلف عهد بها والترويج لها تحت مظلة الإسلام السياسي.

وللعلامة المودودي كذلك دراسة موجزة ولكنها قيمة للغاية، تحت عنوان:"مبادئ أساسية لفهم القرآن الكريم" ضمنها أهم الخطوات المنهجية التي تؤدي إلى فهم سليم وصحيح للقرآن الكريم، وهذه الخطوات تعكس المنهج الحركي في التفسير وأهم هذه الخطوات ما يلي[21]:

1- يجب على من يريد أن يفهم القرآن أن يتخلى ذهنه ما أمكن من التصورات والنظريات السابقة، وينكب على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وتصد نزيه لفهمه، أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات في أذهانهم مقدما فإنهم لا يقرأون بين دفتيه إلا تصورات هم أنفسهم، ومن ثم لا يجدون شيئا من رائحة القرآن.

2- إن من يريد أن يغوص في أعماق القرآن، ويحاول أن يدرك أسراره عليه أن يدمن قراءته، دون ملل أو كلل وأن يدرسه في كل مرة من وجهة جديدة، على أن تكون هذه الدراسة مصحوبة بتسجيل كل خاطرة وتقييد كل فكرة.

3- إن الإلمام بالتصورات العامة لمفاهيم القرآن، ومعالم نظام الحياة التي يوضحها على أساس هذه التصورات أمر لا مناص منه لدارس القرآن، حتى يجد الإجابة الشافية لكل مشكلة تواجه الأمة، على أن الإلمام بتلك التصورات لا يأتي إلا عن طريق معايشة القرآن ذاته بجد وصبر وتدبر.

4- إن أقوم طريق للكشف عن معاني الآيات القرآنية في صورة وافية شاملة، هو تفسيره كوحدات متكاملة وذلك عن طريق التتبع الدقيق لما ورد في القرآن عن كل موضوع من الموضوعات مع البحث عن وجوه الربط بين الآيات التي تحدثت عنه.

5- يستحسن مطالعة ما كتب قديما وحديثا في كل مسألة من مسائل الحياة التي نريد أن نتبين وجهة نظر القرآن فيها، لأن هذه المطالعة التي يجب أن تكون بكل إمعان تحدد أبعاد المسألة، ومبلغ تفكير الإنسان فيها...ومعرفة الجوانب التي تتطلب حلولا، وماذا عجز عنه التفكير الإنساني حتى اليوم...وإذا حقق الباحث ذلك ودرس القرآن واضعا أمام عينيه الجوانب التي تتطلب حلولا فإنه يفاجأ بالحل في آيات قد قرأها عشر مرات من قبل ولم يخطر بباله أنها تتضمن الحل لما يبحث فيه.

6- وهاته الخطوات مهما التزم بها الباحث، وكان دقيقا في تطبيقها فإنه لن تحقق الغاية ما لم يكن الباحث عاملا بما جاء في القرآن الكريم، لأن القرآن كتاب دعوة وحركة، كتاب عقيدة وشريعة، كتاب إيمان وعمل، إنه ليس نظريات مجردة، وأفكارا محضة، يمكن أن تدرس بعيدا عن التجربة العملية، فمناط فهمه وتذوقه والنفاذ إلى أسراره وحقائقه هو التجاوب الواقعي مع مفاهيمه وتعاليمه، ومكابدة الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر، كما كابد الذين آمنوا من قبل، حتى مكنوا لدين الله في الأرض.

ونحن في هذا البحث نقترح أهم الخطوات التي نراها ضرورية للفهم السليم للقرآن الكريم.

1- تغليب الغرض الهدائي في العمل التفسيري، وذلك أن القرآن الكريم هو كتاب هداية وتوجيه أولا، فيجب أن يكون الغرض الأساسي الذي يستهدفه المفسر هو تجلية الهداية القرآنية في شتى مجالات الحياة، وعرض واقع المسلمين على القرآن الكريم، لنرى مدى القرب أو البعد من تعاليم القرآن الكريم وتوجيهاته، ولقد كان الإمام محمد عبده (1905م) في العصر الحديث، من أوائل من دعا إلى النظر "إلى علم التفسير على أنه فهم الكتاب العزيز من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث فهو تابع له أو وسيلة لتحصيله"[22].

ولذا كان رحمه الله يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون السابقون ويختصر ما بروزا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكات البلاغة، وفي الآيات التي لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات وكان يتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين بالنقد ثم يتكلم في الآية أو الآيات المترلة في معنى واحد بما فتح الله عليه فيه من هداية وعبرة[23].

وبعد الشيخ محمد عبده، جاء تلميذه العلامة محمد رشيد رضا (1935م) صاحب تفسير المنار، الذي حاول أن يعبر عن حاجة العصر إلى منهج جديد في التفسير، يلم شتات التفسير، ويعالج المستحدثات ويصد هجمات الغزو الثقافي والفكري، فضمنه كل ما تحتاجه الأمة من أجل تجديد حياتها، فقال -رحمه الله- معبرا عن تذمره من الذين لم يراعوا فيه هذه الجوانب:"إن تفسير المنار قد ألف لاستدراك هذا النقص في

كتب التفسير، ولكنه لا يدرس في المدارس، ولا يعتمد عليه في التربية، ولا يخطو في بال من لم يقرأه أنه يجد فيه كل ما تحتاجه إليه الأمة لتجديد حياتها ومجدها، ولا لدفع الغوائل عنها، ويوشك أن يكون أكثر من اطلعوا عليه لا ينوون بقراءته ما ألف لأجله من الإصلاح والهدي وتجديد ثوراته الأولى"[24].

والدعوة إلى تغليب الغرض الهدائي في العمل التفسيري، هو الذي يتماشى مع رسالة القرآن الأساسية، وغرضه الأول، "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"[25]، وهو الغرض الذي ركز عليه النبيﷺ، والجيل القرآني الفريد من نوعه من الصحابة الكرام، في التفسير، يقول أبو عبد الرحمان السلمي:"حدثنا الذين كانوا يقرئوننا كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا"[26].

وتغليب الغرض الهدائي في التفسير هو الذي يجنبنا عيوب مدرسة "التفقه في العبارة" أو مدرسة "التثقيف الإسلامي" فاهيك عن عيوب المدارس المذهبية في التفسير وما أكثرها.

2- التنازل الموضوعي للسورة القرآنية: وثاني الخطوات المقترحة للوصول إلى فهم سليم لآي الذكر الحكيم، هو التنازل الموضوعي للسورة القرآنية الكريمة، إذ لكل سورة من سور القرآن "شخصيتها المتميزة" ولها محور واحد تدور حوله كل أجزاء السورة، وموضوعاتها مهما تعددت وكثرت، وللعلماء القدامى جهود معبرة لإبراز هذا الوجه من الدراسات القرآنية، فأبو حامد الغزالي (505هـ)، وفخر الدين الرازي (606هـ)، وابن تيمية (729هـ)، وابن القيم (751هـ)، وأبو إسحاق

الشاطبي (797هـ)، وإبراهيم بن عمر البقاعي (885هـ)، وجلال الدين السيوطي (911هـ)، ورشيد رضا (1935م) والدكتور محمد عبد الله دراز (1958م)، الشهيد سيد قطب (1966م). كلهم أسهموا بقسط وافر، وجهد معتبر، لبيان الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى تشكل عقدا متناسقا تناسقا كاملا.

لكن تبقى جهود الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- (1996م) في هذا المجال رائدة إلى حد كبير، فهو إن استفاد ولاشك من جهود من سبقه من المفسرين خصوصا الإمام الشاطبي، والدكتور محمد عبد الله دراز، خصوصا كتابه "النبأ العظيم" فإنه قد تقدم بهذه الدراسات خطوات عملاقة إلى الأمام، وجعل -رحمه الله- من حطبه في الدعوة والإرشاد، مجالا لتفسير سور القرآن الكريم وتناولها تناولا موضوعيا، فهو يقول على سبيل المثال عن سورة محمدﷺ:"لنرى بدءا أن المحور العام الذي تدور عليه السورة هو وصف أهل الحق وأهل الباطل وما يدور بينهما من نزاع حار وبارد"[27].

ويقول عن سورة التوبة:"تنقسم -سورة براءة- إلى قسمين: قسم ويمثل الثلث الأول من السورة يطهر الجزيرة من الشرك ومظاهره ومن تقاليد الجاهلية القديمة، أما القسم الثاني ويمثل الثلثين الباقيين فيطهر الجزيرة من النفاق"[28].

ثم أفرد لهذا اللون من التفسير، مشروعه القيم، الذي ظهر في ثلاثة أجزاء، بعنوان "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم" الذي اعتبره دراسة جديدة للقرآن الكريم، لابد من ارتياءها رغم الصعوبات والمخاطر، فقال:"قد ارتاد طريقا لم

أسبق إليه افتح به بابا من أبواب الخير، والقرآن لا تنقضي عجائبه، ولن نبلغ مهما بذلنا مداه.

والهدف الذي سعيت إليه أن أقدم تفسيراً موضوعياً لكل سورة من الكتاب العزيز، والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام.

أما الأول فهو يتناول السورة كلها ويحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها.

لقد عنيت عناية فائقة بوحدة الموضوع في السورة، وأن كثرت قضاياها... يجب أن أغوص في أعماق الآية لأدرك رباطها بما قبلها وما بعدها، وأن أتعرف على السورة كلها متساوقة متماسكة..."[29].

وهذا الذي يدعو إليه الشيخ الغزالي رحمه الله، وهو تحكيم السياق العام للسورة في فهم آياتها وجزئياتها أمر مهم للغاية، ذلك أنه يقضي على النظرة الجزئية التي سيطرت على عقول المفسرين وهم يتعاملون مع آيات السورة الواحدة، فيفككون بين أجزائها وكأن السورة القرآنية ركام بين الآيات لا رابط بينها[30].

3- الاحتكام إلى قواعد اللغة العربية في تحديد معاني الألفاظ والتراكيب: ومن أهم الخطوات التي تساعد كثيراً على الفهم السليم لنصوص القرآن الكريم، هو الاحتكام إلى قواعد اللغة العربية ومداليلها لتحديد معاني الألفاظ والتراكيب القرآنية، وذلك لأنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وعلى عادتهم في التخاطب، فمن أراد فهمه فهماً سليماً بعيداً عن كل شطط وانحراف، فليسلح بعلوم اللغة

وليتضلّع من أدواتها ما استطاع، يقول الإمام الشافعي:"وإنما بدأت بما وضعت من أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه، جماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها"[31].

ويقول الإمام الشاطبي:"القرآن نزل بلسان العرب في الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة..."[32].

ويقول كذلك:"فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب، وأنه لا عجمة فيه، فيعني أنه نزل على معهود لسان العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب العام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، وظاهر يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى بالإشارة، وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد، وكلّ هذا معروف عندها لا ترتاب منه هي ولا من تعمق بعلم كلامها، فإن كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب"[33].

فلكل لغة من اللغات خصائص وسنن، واللغة العربية واحدة من هذه اللغات التي لها خصائص تتبعها العلماء وأوضحوها أيّما إيضاح[34]. والتي يجب فهم النصوص المكتوبة بها على ضوئها، وعليه فلا بد للمفسر لكلام الله تعالى الالتزام بهذه القواعد والمداليل، والخصائص والسنن، وأنه بقدر الإحاطة بها ومراعاتها في فهم النصوص يكون قريباً من الصواب بعيداً عن الشطط والزلل، والاعتساف في تأويل النصوص تأويلاً مذموماً.

وعلى سبيل المثال يقول تعالى:﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى﴾[35] فقد قال بعض المفسرين إن المقصود: المودة الذي قرباه، وقد انتصر لهذا الرأي الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف[36]. وقد حمله هذا الخطأ اعتماده لبعض الروايات الضعيفة، وهذا خطأ لغوي -لا شك في ذلك- إذ لو أراد المودة لذوي قرباه، لقال: المودة لذوي القربى، فإن من طلب المودة لغيره، لا يقول أسألك المودة في فلان، ولا في قربى فلان، ولكن أسألك المودّة لفلان والمحبة لفلان، فلما قال المودّة في القربى، علم أنه ليس المراد لذوي القربى[37].

ولأهمية فهم مدلول اللّفظ على الحالة التي كان يستعمل فيها زمن التنزيل فإن الشيخ أمين الخولي -رحمه الله- يرى بأنه على الرغم من تميز النّص القرآني لفهم معان متجددة، لكن مع ذلك لا ينبغي أن ننسب إلى القرآن من هذه المعاني إلاّ ما كان طريق فهمه الحس اللغوي للعربية وسبيل الانتقال إليه هو دلالة اللفظ الأولي في عصر نزول القرآن الكريم[38].

حتى إذا فرغ المفسر من معنى اللّفظة اللغوي ودلالتها الأولى في عصر النزول إلى معناها أو معانيها الاستعمالية في القرآن مهتديا بما انتهى إليه من معناها أو معانيها اللغوية وقت النزول فيفسرها حينذاك مطمئناً في موضعها من الآية التي جاءت فيها[39].

وبالإضافة إلى الإحاطة بمعاني الألفاظ ودلالاتها، فلا بد من التضلع من الإعراب لأنه هو الذي يحدد المعاني ويفرق بينها، يقول أن فارس:"من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه

يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد..."[40].

ويقول مكي بن أبي طالب القيسي في مقدمة كتابه "مشكل إعراب القرآن":"رأيت أعظم ما يجب على طالب علوم القرآن، الراغب في تجويد ألفاظه وفهم معانيه، ومعرفة قراءاته ولغاته، وأفضل ما القارئ إليه محتاج "معرفة إعرابه". والوقف على تعرف حركاته وسواكنه، يكون بذلك سالماً من اللحن فيه، مستعيناً على أحكام اللفظ به، مطلعاً على المعاني التي تختلف باختلاف الحركات، متفهماً مما أراد الله تبارك وتعالى من عباده...إلى أن يقول:"... بمعرفة الإعراب تعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويفهم الخطاب، وتصح معرفة حقيقة الخطاب"[41].

ورغم أهمية اللغة، وضرورتها في فهم نصوص الكتاب الكريم، فإنه لا بد من الحيطة والحذر من تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوي الذي تحتمله تركيب الكلام، وهذا أمر تفطن له -قديماً- علماؤنا المحققون، فهذا شيخ المفسرين، محمد بن جرير الطبري (310هـ) قد لاحظ أن أبا عبيدة معمر بن المثنى، في كتابه "مجاز القرآن" ندر أن يستشهد بحديث رسول الله ﷺ، أو أن ينقل أثرا عن صحابي أو تابعي، ولذا نعته بأنه ضعيف المعرفة بأهل التأويل قليل الرواية لأقوال السلف من أهل التفسير[42].

ويقول العلامة ابن القيم:"وينبغي أن يتفطن هنا لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله ﷻ، ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي، الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المفسرين

للقرآن: للقرآن عرف خاص، ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، كما أنّ ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأوضحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي تعجز عنها قدرة العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأضخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به"[43].

وعليه فإن علماءنا القدامى من النحويين المفسرين قد تكلموا عن إعراب الصناعة، وإعراب المعنى، وقالوا بأن المعول عليه هو تفسير المعنى، وهو الذي يجب التمسك به[44].

والخلاصة أن النّحو من أهم ما يجب من أهم العلوم التي يجب أن يحيط بها المفسر لكلام الله تعالى، لكن يجب عليه ألا يسترسل في تحكيم الصناعة النحوية، وتفسير كلام الله ﷻ بمجرد الاحتمال النّحوي الذي يحتمله تركيب الكلام، وإنما يكون مقصوده هو البحث عن المعاني واعتبارها سيق له الكلام له أصلاً.

وبعد علم النّحو تأتي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان التفسير، لأنّه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم، ولذا فإنّ العلماء قد أجمعوا على ضرورة التضلع في علوم البلاغة لمن أراد علم التفسير، يقول العلامة السكاكي في كتابه المفتاح:"لا أعلم في باب التفسير بعد علم التفسير بعد علم الأصول اقرأ على المرء لمراد الله ﷻ من كلامه من علمي المعاني والبديع، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا انفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من القرآن قد ضيمت حقها، واستبلت ماءها ورونقها أن

وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة"[45].

هذا وتبدوا مكانة اللغة العربية، وقواعدها ومداليلها تبدو أهيمتها أكبر عندما نريد أن نحكم على المنهج الباطني المنحرف في التفسير، الذي خاضت غماره فرق كثيرة عندما وضعت مبادئها الفكرية، ومقرراتها الفلسفية أولاً، ثم أولت القرآن تأويلاً بعيداً عن مفاهيم الشريعة، ومدلولات اللغة فيها فوقعت في انحرافات كثيرة، بل وانتهى بها الأمر إلى الخروج النهائي عن الإسلام، وذلك لأن الأصل عند علمائنا المحققين هو الأخذ بظواهر النّصوص إلاّ إذا تعذر ذلك لدليل قائم، فعند ذلك يصار إلى التأويل، يقول الإمام النّسفي في عقائده:"والنصوص على ظواهرها فالعدول عنها إلى معان يدعيّها أهل الباطن إلحاد" وقال السعد التفتازاني معلقاً على هذه العبارة العلمية الدقيقة:"وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها، ومع هذا ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان"[46].

فالوقوف عند ظواهر النصوص، وعدم الخروج عنها، فيه العصمة عن الضياع في تعدد المعاني المحتملة، وهذا الضابط العلمي يقطع على المتلاعبين بآيات القرآن، يقول الدكتور محسن عبد الحميد:"ومن المعلوم عند أهل النّظر والعقل من العلماء المحققين أنّ محاولات استخراج تفسيرات باطنية لأي قانون أو شريعة، دون الرجوع إلى مداليل اللغة، وطبيعة استعمال التراكيب ومتطلبات النحو والبلاغة، وقواعد الأصول ومقاييس العقل، وما ينطبق على الواقع، تعني المسخ ذلك القانون أو تلك الشريعة"[47].

وبالإضافة إلى الباطنية الذين جعلوا للشريعة الإسلامية ونصوصها ظاهراً وباطناً هناك الفرق الكلامية التي ما انحرفت إلاّ بمقدار ما تجاوزت مداليل اللغة وأنظمة قواعدها، حتى أن ابن قتيبة في كتابه "الاختلاف في اللّفظ والرد على الجهمية والمشبهة"، قد سلك في الرد على الجهمية في التأويل والتعطيل منهجاً اعتمد فيه على دلالات اللغة وأوضاع العربية، فقال:"فقدمت القول فيه بذكر ما تأولته الجهمية في الكتاب والأحاديث...ولم أعد في أكثر الرد عليهم طريق اللغة، فأما الكلام فليس من شأننا، ولا أرى أكثر من هلك إلاّ به، وحمله الدين على ما يوجبه القياس"[48].

وسأورد هذا المثال، فقد جاء في تفسير العلامة ابن كثير القصة الآتية:"قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء فجاء عمرو بن عبيد، فقال:يا أبا عمر هل يخلف الله الميعاد؟ فقال:لا، فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت ؟ إنّ العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً وعن الايعاد كرماً. أما سمعت قول الشاعر:

ليرهب ابن العم والجار سطوتي ولا انثني عن سطوة المتهدد

فـــإنّ إن اوعـــدته أو وعـــدته لمخلف ايعادي ومنجز موعدي"[49].

والخلاصة أنّ اللغة العربية، وقواعدها، ومداليلها هي الســـبيل القـــويم للفـــهم الصحيح للقرآن الكريم، وأنّ من أهم أسباب الانحراف في الفهم، ونشوء المنـــاهج المنحرفة في التفسير، هو البعد عن قواعد العربية وأنظمتها في الخطاب، وهو الطريق الذي سلكته الباطنية، وسائر الفرق المنحرفة قديماً وحديثاً.

4- الاحتكام إلى الصحيح من المأثور: ومن أهم القواعد الموصلـــة إلى الفـــهم السليم لنصوص القرآن الكريم، والمبعدة عن كل مواطن الشطط والزلل في التعـامل مع نصوص القرآن الكريم، الاحتكام إلى الصحيح من المأثور وعدم العـــدول عنـــه بحال، والمقصود بالمأثور هو تتبع ما جاء في القرآن نفسه مـــن البيـــان والإيضـــاح والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن النبيﷺ وما نقل عن الصحابة والتابعين مـن كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم[50]، فلا بد للمفسر مـن البحث عن معنى الآية في القرآن نفسه أولاً، لأن القرآن فيـــه المجمـــل والمفصـــل، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، ولذا أجمعت العلماء على ضرورة مراعاة هـــذه القاعدة، وهي تفسير القرآن بالقرآن، يقول ابن تيمية: "فإن قال قائل، فما أحســـن الطرق في التفسير، فالجواب أنّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فمـا أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقـــد بســـط في موضع آخر"[51].

ويمكن القول بأنّ إغفال هذه القاعدة الجليلة من قواعد التفسير هو الذي أوقـــع كثير من الفرق الإسلامية في القراءة الجزئية لنصوص القرآن الكريم، وبالتالي انتهت إلى نتائج خطيرة في التصور الإسلامي العام، وقد تفطن إلى هذا الإمام الشـــاطبي-

رحمه الله- فقال: "...ويمكن أن يكون من خفي هذا الباب مذهب الخوارج في زعمهم: ألاّ تحكيم، استدلالاً بقوله:﴿ إن الحكم إلا لله﴾[52]. فإنه مبني على أن اللّفظ ورد بصيغة العموم فلا يلحقه تخصيص، فلذلك أعرضوا عن قوله تعالى:﴿ فابعثوا به حكما من أهله، وحكما من أهلها﴾[53].

وقوله تعالى:﴿ يحكم به ذوا عدل منكم﴾[54]، وإلاّ فلو علموا تحقيقاً قاعدة العرب في أن "من العموم ما يراد به الخصوص لم يسرعوا إلى الإنكار ولقالوا في أنفسهم هل هذا العام فخصوص"[55].

وقضية أخرى من الخطورة بمكان، وهي أنّ هناك جملة من الآيات اعتبرها بعض الطوائف والفرق الإسلامية من المتشابه، ولكنّ الإمام الشاطبي أوضح بأنّ مصدر تشابهها عند القائلين بأنها من المتشابه إنما مردّه إلى عدم ضمّها إلى باقي الآيات الدائرة معها في نفس الموضوع، وفهم بعض هذه الآيات على ضوء البعض الآخر، فقال: "والثاني وهو الإضافي ليس بداخل في صريح الآية وإن كان في المعنى داخلاً فيه، لأنه لم يصر متشابهاً من حيث وضع الشريعة من جهة أنه قد حصل بيانه في نفس الأمر ولكنّ الناظر قد قصر في الاجتهاد أو زاغ عن طريق البيان اتباعاً للهوى، فلا يصح أن ينسب الاشتباه إلى الأدلة وإنما ينسب إلى الناظرين التقصير، والجهل بواقع الأدلة"[56]. ولقد أورد بعض النماذج من صنيع المعتزلة وكذا الخوارج حيث لم يجمعوا بين أطراف الأدلة فوقعوا في الزيغ ثم قال:"وهكذا سائر من اتبع هذه الأطراف من غير نظر فيما وراءها ولو جمعوا، بين ذلك ووصلوا ما أمر الله به

أو يوصل لوصلوا إلى المقصود، فإذا أخذ من غير بيان صار متشابها وليس بمتشابه في نفسه شرعا بل الزائغون ادخلوا فيه المتشابه على أنفسهم فضلوا على الصراط المستقيم"[57].

وبعد البحث في القرآن نفسه عن معنى النص القرآني، ينتقل المفسر إلى السنة النبوية الشريفة، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قد كلف بمهمة البيان والتبليغ، وفسر الكثير من الآيات القرآنية للصحابة رضوان الله تعالى عليهم حين أشكل عليهم فهمها وسألوه عن معناها، يقول تعالى:﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتذكرون﴾[58]. ويقول:﴿ وأنزلنا إليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[59].

ولذا لم تختلف كلمة العلماء والمحققين من المفسرين المحدثين والفقهاء والأصوليين على أن السنة تبين المجمل وتخصص العام وتقيد المطلق... بل أجمعت كلمتهم على قبول هذا اللون من التفسير وتقديمه على غيره، فإذا صح فإنه يكتفي به ولا يجوز العدول عنه إلى غيره، يقول الإمام الشافعي:"جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن"[60].

ولقد بين -كذلك- شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري أهمية السنة في الوصول إلى علم تأويل القرآن وهو بصدد المبحث في مقدمة تفسيره عن الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن فقال: "فقد تبين ببيان الله جل ذكره أن مما أنزل الله من القرآن على نبيهﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره ونهيه وندبه وإرشاده وصنوف نهيه وطائف حدوده ومبالغ فرائضه ومقادير اللازم

بعض خلقه لبعض وما أشبه ذلك من أحكام آية التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ له بتأويله بنص منه أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله"[61].

ومن خلال هذا النص المهم نجد أنّ أبا جعفر الطبري قد جعل وجوه تأويل القرآن ثلاثة، وهو هنا ركزّ على الوجه الثاني وهو ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ، وكما هو واضح من النص فإنّ هذا الوجه يتعلق أكثر ما يتعلق بالأحكام العملية، التي لا سبيل لأن تدركها الأمة إلاّ بواسطة ﷺ.

ويقول ابن تيمية مبيناً أهمية تفسير القرآن بالسنة:"فإن أعياه ذلك (تفسير القرآن بالقرآن) فعليه بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل لقد قال الإمام محمد بن ادريس الشافعي:كل ما حكم به رسول الله فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾[62]، وقال تعالى:﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[63]،وقال تعالى:﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[64]، ولهذا قال رسول الله ﷺ:"ألا وإني وتيت الكتاب ومثله معه"[65]، إلى أن قال ابن تيمية:"والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنّة"[66]، وقال كذلك في موضع آخر:"ومما ينبغي أن يعلم القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة فإنه قد عرف تفسيره"[67].

وإذا لم نجد الضالة، ولم نظفر باللغية في سنة رسول الله ﷺ، رجعنا إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، لأنهم هم الذين شاهدوا التنزيل، وعاينوا أسباب النزول، يضاف إلى هذا سلامة فطرتهم، ونقاوة سريرتهم، ورسوخهم في الفصاحة والبيان، لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم التي كانوا يتكلمون بها، ويعرفون معاني ألفاظها، وأسرار تعبيرها، ودقة معانيها، وهذا كله يؤهلهم للفهم الصحيح لكلام الله ﷻ، ويعطي لبيانهم لكتاب الله مكانة عالية، يجب على من أراد الفهم الصحيح لكلام الله أن يطلع على بيانهم، يقول الإمام الشاطبي: "بيان رسول الله ﷺ بيان صحيح لا إشكال في حجته،... وأما بيان الصحابة فإن أجمعوا على ما بينوه فلا إشكال في صحته أيضا، كما أجمعوا على الغسل من التقاء الختانين المبين لقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنبا فاطهروا﴾[68]، وإن لم يجمعوا عليه فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل ولكنهم يترجح الاعتماد عليهم في البيان من وجهين:

– أحدهما: معرفتهم باللسان العربي، فإنهم عرب فصحاء لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة.

– الثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم اقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات أو تخصيص بعض العمومات فالعمل عليه صواب. هذا إن لم ينقل عن أحدهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية"[69].

الهوامش

1- جمال الدين الأفغاني أحاديث وذكريات، عبد القادر المغربي، ص60.

2- خاطرات جمال الدين الأفغاني، محمد المخزومي، ص99-100.

3- جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات، المغربي، ص61.

4- جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات، ص99.

5- انظر مجلة الرواسي، العدد5، شعبان، رمضان 1412هـ ، الموافق لـ جانفي، فيفري 1992م. حوار مع المفكر جودت سعيد.

6- محاضرات ملتقى الاجتهاد، قسنطينة 19، 26 1983م، محاضرة الاجتهاد وشاعر الإسلام العلامة محمد إقبال للدكتور ظهور أحمد ظهر.

7- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4/ص46، طبعة وزارة الشؤون الدينية، 1985م، ط.1.

8- سورة الفرقان. الآية30.

9- جالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 251، طبعة وزارة الشؤون الدينية، الجزائر. ط.1. 1982م.

10- أليس الصبح بقريب، محمد الطاهر بن عاشور. ص5.

11- المصدر نفسه. ص184 وما بعدها.

12- مجلة المسلم المعاصر، سيمنار تدريس العلوم الشرعية، محمد الغزالي، السنة 16. العدد 62، 1992م.

13- إسلامية المعرفة، قصة حياة محمد الغزالي، السنة الثانية، العدد السابع، 1417هـ- 1997م. وانظر أيضاً الفصل الخاص بالتفسير "على هامش التفسير" من كتابه القيم.

14- الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج3. ص307.

15- علوم القرآن، د/عدنان زرزور، ص421.

16- علوم القرآن، د/عدنان زرزور، ص 425.

17- علوم القرآن، د/عدنان زرزور، ص426.

18- نفسه، ص427.

19- حضارة الإسلام، السنة السابعة، العدد 8، 1967م.

20- الإسلام في مواجهة التحديات، أبو الأعلى المودودي، ص175.

21- مبادئ أساسية لفهم القرآن الكريم، أبو الأعلى المودودي، ص49.

22- تفسير المنار. ج1. ص17.

23- تفسير المنار. ج1. ص15.

24- الوحي المحمدي، رشيد رضا، ص12.

25- سورة الإسراء، الآية9.

26- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13. ص331.

27- خطب الشيخ محمد الغزالي، ج2، ص148.

28- خطب الشيخ الغزالي، ج2، ص59.

29- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص5.

30- انظر في هذا دراستنا: نحو منهج حضاري في فهم القرآن عند الشيخ الغزالي.

31- الرسالة، الإمام الشافعي، ص50.

32- الموافقات، الشاطبي، ج2، ص50.

33- الموافقات، الشاطبي، ج2، ص50.

34- انظر هذه الخصائص في مقدمة تفسير الطبري، ج1، ص6، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، ص8، وتأويل القرآن، ص450، والصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابن فارس، وفقه اللغة وسرّ العربية لأبي منصور الثعالبي الخ.

35- سورة الشورى، الآية ص23.

36- الكشاف، ج4، ص220.

37-محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، ج14، ص50.

38- مناهج تجديد، أمين الخولي، ص312.

39- نفسه، ص311.

40- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ص77.

41- مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، ج1، ص63.

42- تفسير الطبري، ج1، ص44.

43- التفسير القيم، ابن القيم، ص369.

44- الإتقان، ج1، ص238، والخصائص لابن جنّي، ج1، ص384، وتفسير القرطبي، ج1، ص34.

45- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج1، ص20.

46- العقائد النسفية، ج1، ص204.

47- حقيقة البابية والبهائية، د/محسن عبد الحميد، ص26.

48- عقائد السلف، تحقيق د/علي سامي النّشار ود/عمار طالبي، ص225.

49- تفسير ابن كثير، ج4، ص653.

50- التفسير والمفسرون، د/محمد حسين الذهبي، ج2، ص152.

51- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13، ص363.

52- سورة يوسف، الآية 40.

53- سورة النساء، الآية 35.

54- سورة المائدة، الآية 95.

55- الاعتصام، الشاطبي، ج1، ص238.

56- الموافقات، ج3، ص55.

57- الموافقات، ج3، ص54.

58- سورة النحل، الآية44.

59- سورة النحل، الآية64.

60- الرسالة، الإمام الشافعي، ص106.

61- تفسير الطبري، ج1، ص26.

62- سورة النساء، الآية64.

63- سورة النحل، الآية44.

64- سورة النحل، الآية 64.

65- رواه أبو داود في سننه، كتاب السلام، لزوم السنة، ج1، ص200، رقم الحديث 04، 1/6.

66- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13، ص363.

67- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13، ص27.

68- سور المائدة، الآية 6.

69- الموافقات، ج3، ص219.